المرأة والدولة

في فجر الاسلام

للسيدة الباحثة نابية أبوت
ترجم وعلق عليها : محمد عبد الغني حسن

لم تكن هند هي المرأة العربية الوحيدة التي وقفت موقفاً عدائياً من محمد ومن الاسلام . فلقد أنكرت بنو غطفان على النبي دخوله في أرضهم شمالي شرق المدينة ، وكان زعيم بنو غطفان عُيينة بن حصن الفزاري الذي حدثت بينهُ وبين النبي بعض مناوشات انتهت بأن جرى بينهما صلح(٨٨) . وعند ما حاصر المشركون المدينة سنة ٥ هجرية — ٦٢٧ ميلادية بلغت عداوة عيينة مبلغاً خطراً جعل النبي يصالحه على أن يعطيه ثلث ثمار المدينة لكي يخذل هو وقومه الناس عن القتال . ومن حسن حظ المسلمين أن الأنصار أبوا ذلك

(وقال سعد بن معاذ لنبي متكلماً لسان الانصار : يا رسول الله : قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الاوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً . أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف (٨٩) حتى يحكم الله بيننا وبينهم — ابن هشام ج ٣ ص ١٦١ — المترجم) .

وفي العام التالي نجد زيد بن حارثة — مولى النبي — في غزاة الى وادي القرى ضد الفزاريين ليثأر منهم في مناوشة سابقة أصابهُ منها جرح . وكان يقود الفزاريين في هذه المرة كما في المرة السابقة أرملة مالك بن حذيفة واسمها أم قرفة فاطمة بنت ربيعة ، وكانت امرأة مشهورة قوية وكانت عجوزاً كبيرة ، وكانت تقود قومها بنفسها وفيهم أولادها الكثر وحفدتها . ولكن الدائرة دارت عليها وأخذت هي وابنتها الجليلة أم زمل سلمى بنت مالك أسيرتين . وقد شفى زيد بن حارثة غليل نفسه من أم قرفة بأن قتلها قتلة عنيفة بربرية ، فربط رجليها بحبلين ثم ربطهما الى بعيرين حتى شقها (٩٠)

(لم يذكر ابن هشام صفة قتل أم قرفة بهذه الصورة البشعة ، ولكنه ، قال ان زيداً أسر قيس ابن المسير بأن يقتل ام قرفة فقتلها قتلا عنيفاً — السيرة ج ٢ ص ٤٠٠ . وجاء في أسد الغابة ذكر مقتل أم قرفة ولكنه لم يذكر التمثيل بها . وذكرها الواقدي في كتابه المغازي مفعلة بهذه الصفة القاسية . والاستاذ محمد رضا في كتابه محمد ص ٣٣٨ يشك في صحة هذه الحادثة ويستدل على ذلك بنهي النبي عن المثلة في وصاته لعبد الرحمن بن عوف قبل سرية زيد بن حارثة بشهر واحد . وليس من المعقول ان يبلغ النبي خبر التمثيل بأم قرفة ثم يسكت عنه وهو ما نعلم في رأفته وشفقته حتى على الحيوان الاعجم . وحديثه عليه

(٨٨) ابن هشام والطبري والاغاني ج ٣ والنووي (٨٩) ابن هشام وسير ص ٣٠٧ ، ٣١٢
(٩٠) ابن هشام والطبري والواقدي واليعقوبي ج ٢ ص ٧٤

السلام عن الرجل الذي بلغ به العطش وسقياء للكلب ، وعن المرأة التي عذبت في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الارض يصوران لنا رحمته بالحيوان به الانسان الخالق . ولعل هذه القصة وضعها بعض ذوي الاغراض السياسية ليقربوا بينها وبين ما صنعت هند بنت عتبة مع حمزة عم النبي — المترجم)

ولقد بلغ خبر الهزيمة والتمثيل بأم قرفة من نفس عيينة بن حصن مبلغه ، لأنها كانت عمته وسلمى الأميرة بنت عمته . وعلى كل حال فنحن نجد عيينة في العام التالي في مهاجمة المسلمين ، ولكنه كان من المؤلفة قلوبهم . وكان له في قومه نفوذ ، فرأى النبي أن يستميلهُ بالعطايا ويتألف قلبه بالهبات . ولهذا كان عيينة ممن نالوا أكبر الاقسماء من غنائم غزوة حنين . وكان ممن رفض أن يرد الاسلاب الى أصحابها بعد أن دخلوا في الاسلام

(الحق ان عيينة لم يرض أن يرد الاسلاب نحسب ، بل أبى أن يرد السبايا من النساء والابناء ، ويروي عنه ابن اسحاق أنه أخذ عجوزاً من عجائز هوازن وقال حين أخذها لعلي أرى عجوزاً وأحب ان لها في الحي نسباً ، وعسى أن يعظم فداؤها ، فلما رد رسول الله السبايا بعث فرائض أبي عيينة أن يردها فقال له زهير أبو صرد : خذها عنك فوالله ما فوها ببارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا بطنها بوالد ، ولا زوجها بوالد ولا درها بأكد « ليست غزيرة اللبن » .. فردها ... المترجم عن ابن هشام ص ٣١٩)

وكان النبي لا يطمئن الى عيينة . ولكنه وجد من الضروري ان يلاطفهُ في المعاملة لعلمه بنفوذه وشرفه في قومه(٩١)

ولكن عيينة لم يكن مسلماً صادق الاسلام ، ولهذا نجدهُ بين الذين ارتدوا عن الاسلام بعد وفاة النبي ، مدعياً انهُ لم يعرف الامن ولا الاطمئنان على حدود قبيلته منذ ظهور محمد . وكانت غطفان فيما مضى حليفة لبني أسد ، فأراد عيينة أن يجدد الحلف من جديد . وذلك يعني انهُ بناصر طليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة . وقد رضي عيينة بمناصرة طليحة ومساعدته على نبوته ، مؤثراً بذلك أن يكون تابعاً لنبي من بني اسد على أن يكون تابعاً لنبي من قريش . لأن محمداً قد مات وطليحة ما زال الحياة تنبض في قلبه . وقد أثارت أخبار هذا الحلف بين أسد وغطفان الفتنة في أحياء العرب ، فارتد عن الاسلام كثير من القبائل ، وبقيت قبائل اخرى تخطب ودَّ الاحلاف ولكن أبا بكر — الخليفة الاول أرسل أمير قواده خالد بن الوليد لمقاتلتهم . وفي موقعة بزاخة (بأرض نجد — المترجم) التي دارت بين المسلمين والمرتدين أدرك عيينة بن حصن ورجاله السبع مائة أن الله ليس مع طليحة وحزبه فتراجعوا عن القتال . وفر طليحة وزوجه الى الشام وأسلم بعد ذلك . اما عيينة فقد حمل أسيراً الى أبي بكر متهماً بالردة فردَّ في جرأة بأنهُ ما كان مسلماً قبل ذلك ليرتد : ولكنهُ الآن يعلن اسلامه فعفا عنهُ الخليفة(٩٢) . ولكن أشياع طليحة بن خويلد لم يكونوا جميعاً على استعداد لانهاء القتال ، حينما تخلى عنهم بعض زعمائهم وجد جماعة منهم أن يجعلوا الزعامة في

(٩١) ابن هشام والواقدي ص ٤٢٣

(٩٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٩٦ والطبري ومعجم ياقوت ج ١ ص ٦٠١ .

امرأة جريئة مغامرة هي سلمى قريبة عبيد وابنة ام قرفة التي قتلت قتلة عنيفة وقد تقدم ذكرها وكانت سلمى هذه سبيت في غزاة وادي القرى وأعتقتها السيدة عائشة فخدمتها زماناً. ثم تزوجت براحد من قرابة الرسول، ولكنها وجمت الى قومها وارتدت عن الاسلام والتحمت مع عيينة بن حصن الى طليحة المتنبيء منذ كرة مقتل أمها العنيف الذي أغراها على الثأر أو الموت. ولقد اجتمع حول لوائها جمع من فزارة وأسد وهوازن وسليم وطي فقادت الجموع بنفسها كما صنعت أمها من قبل، وكانت واقفة على جمل لامها، والقتال حولها عنيف، لأن خالد بن الوليد قد وعد مائة من الابل لمن يقتل رجالها، ولكن الدائرة كانت عليها، فاجتمع على الجمل فوارس من المسلمين فعقروه وقتلوها وقتل حول جملها نحو مائة رجل[٩٣]

وفي هذه الحقبة نفسها من عصر الارتداد عن الاسلام نشهد في السنة الحادية عشرة من الهجرة آخر امرأة من ملكات العرب تظهر في الميدان، تلك هي المتنبئة أم صادر سجاح بنت عوص بن حق من قبيلة تميم

(في الدر المنثور ان اسمها سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية وفي الاعلام للزركلي كذلك. وفي فتوح البلدان للبلاذري طبع مطبعة جامعة كولمبيا بالولايات المتحدة ص ١٥١ ورد اسمها كما ذكرته الباحثة الفاضلة — المترجم)

وقصة سجاح لا تجدها تامة أو متتابعة في أي موضع من التاريخ. ونحن لا نعرف شيئاً عن سجاح قبل ظهورها المفاجيء. وقليل مما روي بعد ذلك نستطيع ان نؤكده. على أن قصة ادعائها النبوة تحمل كثيراً من الروايات المختلفة[٩٤] ومن هذه الروايات روايتان اكثر تحديداً ووضوحاً :— الاولى منهما مصدرها مدرسة العراق وقد رويت عن طريق سيف بن عمر التميمي الذي عاش في زمن هرون الرشيد العباسي، وأضيفت اليها بعض ملاحظات شتى. وهي قصة تعرض لنا سجاح كامرأة وزعيمة سياسية ودينية في صورة غير مرضية

وعلى كل حال فقد أظهرت الدراسات الغربية الحديثة أن سيفاً هذا كان قصاصاً مشهوراً، وكان هدفه الأعظم أن يشيد بأعمال قبيلته — تميم — وأن ينفي عنها — ما استطاع — كل تهمة بالردة[٩٥] أما الملاحظات الشتى التي مع هذه الرواية فهي تحمل في طياتها كل ضغينة مقصودة

وبناء على هذه الرواية كانت سجاح تغلبية لا تميمية انحدرت من العراق لا من أرض تميم، وكانت امرأة ضعيفة أغراها عن شرفها ونفسها مسيلمة الكذاب. ولقد ادعت النبوة متأثرة بأحاديثه الثافهة وآياته السجوعة. ومحصل القول في هذه الرواية أن سجاح كانت امرأة ضعيفة ونبية كاذبة، ولكنها في النهاية اهتدت بنور الاسلام وماتت مسلمة حسنة

(٩٣) الطبري ومعجم ياقوت ج ٢ ص ٣٥٣ والسيرة الحلبية ج ٣ والاصابة ج ٤
(٩٤) دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ص ٤٤ (٩٥) المصدر السابق في الصفحة نفسها

الاسلام[٩٦] أما الرواية الثانية عن سجاح فهي أقل وثوقاً من الرواية الاولى ، ومصدرها مدرسة المدينة[٩٧] وحيثما يضاف الى هذه الرواية بعض الملاحظات — مع إدراك الموقف على وجه العموم — نستطيع أن نكوّن من ذلك قصة محتملة عن سجاح كما يلي :—

كانت سجاح نفسها تميمية ، ولكن أمها من قبيلة بني تغلب ، وهي القبيلة التي استقرت زمناً في جنوبي العراق وكانت على النصرانية . ومن المحتمل أن آراء سجاح الدينية قد تأثرت بديانة أمها ، ولو أنه ليس هناك ما يجعلنا نستنبط أن سجاح نفسها كانت نصرانية

وهناك من المصادر ما يذكر أنها كانت كاهنة[٩٨] . وقد رأينا في اول المقال الدور الذي استطاع الكاهن والكاهنة ان يلعباه — او لعباه بالفعل — في بلاد العرب الوثنية

واذا صحّ ان سجاح كانت كاهنة او لم يصح فانه من المؤكد انها أدركت بعض الزعامة في قومها قبل وفاة محمد ، والاّ ما استطاعت ان تجد لنفسها أتباعاً حينما ادعت النبوة بعد وفاة النبي . وكان الموقف الديني والسياسي الذي غامرت فيه سجاح ، والذي خاطرت فيه بنفوذها في قبيلتها معقداً خطيراً . فلقد مات النبي محمد وتنبأ الأسود وطليحة ومسيلمة

(الصحيح ان الاسود العنسي ادعى النبوة في حياة النبي والتصويب عن محمد لرضا ص ٤٧٨ ، أما طليحة فقد تنبأ أيضاً زمن الرسول والتصويب عن الاعلام للزركلي ، وكذلك مسيلمة والتصويب عن محمد لرضا في الصفحة نفسها — المترجم)

وهذا العصر يسمى عصر المتنبئين . ولقد وجدت سجاح من نفسها امرأة قوية القلب بعيدة المطامح ، وخاصة اذا صحّ انها كانت كاهنة — ولهذا وجدت الفرصة مواتية لها لكي تظهر في ميدان المتنبئين امرأة متنبئة . ولا بد انها وجدت نفسها أهلاً لهذه الدعوة

ولقد ارتد كثير من أتباع بني تميم عن الاسلام وألقوا بلومهم مع سجاح في الدلاء . وبينهم أحياء من حنظلة وعلى رأسهم وكيع بن مالك ومالك بن نويرة . وتردد بعض القبائل بين الاسلام والردة . وهكذا انقسم بنو تميم ، وجرّهم الانقسام الى حرب أهلية ووقعت الفتنة بينهم . وخسر أتباع سجاح الحرب في معركتين صغيرتين ، فانفضّ عن سجاح بعض أتباعها ، ولهذا صارت مضطرة الى ان تعقد صلحاً على شرط ان تخرج من تميم . ولكن هذه الهزيمة لم تكن من الخطورة بحيث تكفي لحمل سجاح على الرجوع عن ادعاء النبوة ، فلقد صمّمت على الخروج الى مسيلمة لقتاله ، فاذا انتصرت عليه حاولت ان تتفرغ لقتال ابي بكر وقريش . وكان من حججها ان تميماً تعدل قريشاً في الشرف والسيادة لأنها من مضر

(ضبطت الباحثة اسم مضر بالحروف الافرنجية هكذا « Madr » وهو خطأ صوابه Modar — المترجم)

واذا كانت النبوة في قريش فانها يصح ان تكون ايضاً في تميم . وعلى هذا تبقى قريش مع

(٩٦) الطبري والاغاني ج ١٨ والنظري ص١٠٤ (٩٧) فتوح البلدان ص٩٩ (٩٨) فتوح البلدان ص ٩٩

محمد في أرض الحجاز وفي الشمال الغربي من بلاد العرب ؛ وتبقى تميم مع سجاح في نجد والشمال الشرقي من بلاد العرب.[٩٩]

(غرض الباحثة ان قريشاً تبقى على دين محمد عليه السلام لا مع محمد نفسه ، لان الذي مات قبل أن تظهر نبوة سجاح . ومما قاله سجاح في ذلك ما رواه الاغاني ج ١٨ ص ١٦٦ : — أيها المؤمنون النتون : لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يبغون . ويروى عن مسيلمة في الدر المنثور ص ٢٤١ انه قال : لنا نصف الارض ولقريش نصفها لو عدلت » ويظهر ان فكرة مناصفة الارض بين قريش وبين المتنبئين من اختراع القصاص لانها لا تتغير فهي كل متنبيء فكرة وألفاظاً — المترجم)

خرجت سجاح على رأس جيشها قاصداً اليمامة عاصمة مسيلمة وهنا كانت الخصومة والمنافسة بلغت مبلغها بين مسيلمة وسجاح . ولهذا كانت الفرصة غير ملائمة لمسيلمة فاستشار رهطه فاتفقوا على ان يرسل اليها ليستأمنها على نفسه حتى يأتيها ، فأمنته فجاءها في منتصف الطريق ليعقد معها صلحاً على السلام والامان.

وقد كان بينهما لقاء تختلف الروايات في وصفه . وقد قيل ان مسيلمة على شيخوخته — فقد قيل انهُ اوفى حينئذٍ على المائة والخمسين عاماً — اعتدى على شرفها وأجبرها على زواج غير شريف وما أسرع ما أنكر زواجها وأعادها الى قومها في جنوبي العراق ذليلة سليبة الشرف فارغة اليد.[١٠٠] وبعض الروايات تقول أنهما حين تلاقيا استطاع مسيلمة بآياته المسجوعة ان يقنع سجاح بحقه العالي في النبوة . ثم عرض عليها زواجاً شريفاً فقبلته طيبة الخاطر . وهذه الرواية تناسب ما عرف من السير من ان سجاح اشتركت مع مسيلمة في ادعاء النبوة وبقيت معه في أرض اليمامة حتى سقطت[١٠١] . وبعض المصادر لا تشير الى معاهدة بين سجاح ومسيلمة . وشرطها ان تنصرف سجاح ويصالحها مسيلمة على غلات اليمامة سنة ، تأخذ النصف ، وتترك عنده من يأخذ النصف وهم ثلاثة من قوادها (عديل وعنة وزياد — المترجم عن الدر المنثور ص ٢٤١)

ولولا تقدم سن مسيلمة وذكر المعاهدة لوجدت الرواية الثانية عن زواج سجاح بعض القبول ، ولكن الاحتمالات — على العلات — في مصلحة المعاهدة وحدها . لأن الحظ في ذلك الوقت كان محالفاً لقريش ، فقد كان خالد بن الوليد على وشك الاجهاز على جيش طليحة بن خويلد وسلمى أم زمل . ولم يكن جيش سجاح منظماً او يصح الاعتماد عليه . ولهذا كانت شروط مسيلمة في المعاهدة كريمة سخية . وقدرت سجاح انهُ في مثل هذه الظروف قد يكون الحزم والعقل أحسن مراتب الشجاعة ، فقبلت شروط مسيلمة وعادت الى قومها — لا الى بلاد تميم التي خرجت منها — ولكن الى ارض اخوالها بني تغلب[١٠٢] من العراق

(٩٩) الاغاني ج ١٤ ص ٦٦ ، ج ١٨ ص ١٦٥ (١٠٠) الاغاني ١٨ ص ١٦٦ والفخري ص ١٠٤ (١٠١) الطبري واليعقوبي ج ٢ ص ١٤٤ وابو الفدا ج ١ ص ٢٠٨ — ٢١٢
(١٠٢) الطبري وابن الاثير ج ٢ ص ٢٧١

واذا كان لسجاح بعد ذلك مطامع في زعامة دينية او خطط طامحة الى فتوحات حربية فان حوادث الاشهر التالية قضت على مطامعها وخططها قضاءً مبرماً . فهذا خالد — سيف الاسلام — يكتسح البلاد ، وهذا مالك بن نويرة أكبر حلفائها من تميم قبض عليه في البطاح

(وقتل ضرارة من ضرار بن الازور الاسدي — الترجم عن فوات الوفيات ج ٢ ص ١٤٣)

وهذا مسيلمة آخر المتنبئين وأكثرهم ادعاء قد قتل في موقعة عقربة اليمامة . وبقتل مسيلمة انتقلت غلات اليمامة — التي وعد بها سجاح — الى يد الفاتح الذي كان يتقدم شيئاً فشيئاً الى أرض العراق . ولهذا ليس من العجب ألاّ نسمع بعد هذا عن سجاح . هل أقامت مع بني تغلب واعتنقت المسيحية ؟ أم هل عادت الى تميم التي رجعت ثانية الى الاسلام وأصبحت مسلمة مثلهم ؟

فاذا فعلت ذلك فانها تكون قد تنبأت خطوات طليحة . وأغلب المؤرخين يقولون باختصار انها عادت الى تميم وأسلمت وعاشت بقية أيامها الى أن ماتت في البصرة (١٠٣) التي أصبحت منزلاً للتميميين في عهد معاوية الذي أنزل تميماً في البصرة سنة ٤١ هجرية . سنة ٦٦١ — ٦٦٢ ميلادية

ولم يحفظ لنا مؤرخو السيرة المسلمون شيئاً من تعاليم سجاح . ولكن قليلاً من أسجاعها وصل الينا وهي أسجاع كانت تحمس بها الرجال على القتال ، وتعرف إلاهها برب السحاب . وكان لها مؤذنون من الرجال يدعون الناس الى الصلاة ، كما كان لها حاجب خاص وكانت تخطب الناس وتنشر دعوتها من فوق منبر (١٠٤)

ولقد خرجت سجاح — تقريباً — من غموض مطبق ولكنها — محاربةً ومتنبئةً — لعبت دوراً قصيراً ولكنه عظيم في التاريخ السياسي لأواسط جزيرة العرب

وبعد ذلك انتقلت حياتها الى غموض أشد كثافة مما أحاط ظهورها

ومع هذا فانها — وهي المرأة المتنبئة المقابلة لمحمد — ترى فيها آخر امرأة من ذلك الخط القديم الطويل المتقطع من ملكات بلاد العرب المستقلات

وهكذا نرى ان بلاد العرب التي أخرجت يوماً بلقيس ملكة سبأ ، والامبراطورة جوليا دُمنا ، وزنوبيا الملكة الجليلة الشأن لم تعد تعرف ملكات محاربات مستقلات . ولكننا نرى بعد ذلك زوجة لسلطان أو أمّاً لخليفة أو أختاً أو عمة لملك تتدخل في بعض الشؤون السياسية . وقليلٌ من هؤلاء يحسنّ أدوارهنّ الى حد أننا لا نرى على مسرح السياسة في عصرهنّ إلاّ معرضاً للاعيب المرأة الذكية . وعلى كل حال فان الملكات المسلمات المستقلات سيظهرنَ في عصور تالية ، ولكنهنّ لسنَ من بنات العرب (تمّ)

(١٠٣) الطبري وابن الاثير ج ٢ ص ٢٧١ (١٠٤) دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ص ٤٤